جامعة عبد الحميد ابن باديس – مستغانم -

كلية العلوم الإجتماعية و الإنسانية

قسم الفلسفة

تخصص فلسفة

مذكرة لنيل شهادة الماستر

فلسفة الأخلاق عند سبينوزا

من إعداد الطالبة :

بلميسوم فتيحة

تحت إشراف :

أ/د بن دنيا سعدية سعاد

السنة الجامعية :2022/2021

جامعة عبد الحميد ابن باديس – مستغانم -

كلية العلوم الإجتماعية

قسم الفلسفة

تخصص فلسفة

مذكرة لنيل شهادة الماستر

فلسفة الأخلاق عند سبينوزا

من إعداد الطالبة :

بلميسوم فتيحة

تحت إشراف :

أ/د بن دنيا سعدية سعاد

السنة الجامعية :2022/2021

الشكر و العرفان

بعد باسم الله الرحمن الرحيم :

قال الله تعالى { وقل واعملوا وسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وتردون الى علم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون }

التوبة - 104 -

إلى من أرضعتني الحب الحنان

إلى القلب النصح والدتي الحبيبة " حفظها الله "

إلى من حصد الأشواك عن دربي ليمهد لي الطريق العلم

وإلى القلوب الطاهرة والرقيقة والنفوس البريئة إلى الذين بذلوا جهدا وعطاء لكي أصل هذه اللحظة أستاذتي المحترمة بن دنيا سعدية سعاد " حفظها الله "

" إليكم جميعا أهدي هذا العمل "

الإهداء

أشكر الله عزوجل أولا و آخرا الذي وفقني في دراستي لأتمم هذا العمل المتواضع ، ثم أتوجه بالشكر إلى:

من حملتني في ظلمات ثلاث و أهدتني نور الحياة و علمتني هجاء الكلمات و ذرفت في أفراحي و أحزاني العبارات ، إلى أغلى ما أملك في الدنيا " أمي حياتي "

إلى أغلى و أعز ما أملك في الوجود الذي سعى في مساندتي أوقات شدتي بسعة قلبه و تفهمه ، نصفي الثاني زوجي " " حفظه الله لي و إلى كل عائلة زوجي "

إلى كل من علمني حرف خاصة أساتذتي المشرفة " بن دنيا سعدية سعاد "التي أمدتني القوة و العزيمة لها خالص الشكر و التقدير

إلى كل من يعرفني و يعود الفضل لله تعالى و له أحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه أن وفقني في إتمامه . فاللهم اجعله بحثا خالصا لوجهه الكريم

وشكرا

فهرس المحتويات

الفهرس

إهداء	
الشكر و التقدير	
المقدمة	-أ-
الفصل الأول : تطور الفكر الفلسفي الاخلاقي	
المبحث الأول : القيم الأخلاقية في الفكر الشرقي القديم	-01-
المبحث الثاني : القيم الأخلاقية في الفكر الفلسفي اليوناني	-09-
المبحث الثالث : القيم الأخلاقية في الفكر الإسلامي.....	-15-
المبحث الرابع : القيم الأخلاقية في لفكر العربي الحديث و المعاصر	-17-
الفصل الثاني : إنشاء و تشييد الأخلاق	
المبحث الأول : مفهوم الأخلاق	-20-
المبحث الثاني : الخير و الشر.....	-22-
المبحث الثالث : المنهج الهندسي	-23-
المبحث الرابع : الله و الطبيعة	-25-
الفصل الثالث : موضع الأخلاق في فلسفة سبينوزا	
المبحث الأول : من الطبيعة البشرية إلى التجمع المدني	-31-
المبحث الثاني : السياسة	-33-
المبحث الثالث: بين الدولة و الدين	-34-
المبحث الرابع : مقاربة نقدية	-35-
خاتمة.....	-36-
قائمة المصادر و المراجع.....	-38-

المقدمة

المقدمة :

لقد كانت المشكلة الأخلاقية أزمة إنسانية حقيقية عبر العصور سواء ما تعلق بالجانب الفردي أو العلاقات الإجتماعية داخل المجتمع الواحد ، فالمجتمع ما هو إلا عبارة عن العادات و التقاليد التي تساهم في الرقي الإنساني لتحقيق السعادة .

و تعرف فلسفة الأخلاق على أنها دراسة معيارية للخير و الشر ، كما تهتم بالقيم المثلى و تصل بالإنسان إلى الإرتقاء عن السلوك الغريزي بمحض إرادته الحرة و أصبح الصراع بين مطلقية الأخلاق و نسبيتها الشغل الشاغل لرواد الفكر الأخلاقي بوجه العموم خاصة العموم خاصة مع بداية عصر التنوير القرن السابع عشر ميلادي

(17م) و حقيقة الأخلاق التي صرح بها سبينوزا تكمن فيما هو حتمي أو ما هو ضروري و لهذا جاءت فلسفة سبينوزا كرد على عبدوية الإنسان للإنسان

لقد حاولنا في هذه المذكرة الإجابة على الإشكالية التالية :

كيف أسس سبينوزا للأخلاق لخلاص الإنسان من العبودية ؟

و لتحليل الإشكالية السابقة الذكر : قمنا بتقسيم بحثنا هذا إلا ثلاث فصول رئيسية و كل فصل إلى ثلاثة مباحث ، و إذ تناولنا في الفصل الأول إلى مدخل عام و الذي يتمثل في تطور الفكر الفلسفي الاخلاقي حتى يتسنى لنا التعرف على التطور الذي عرفته فلسفة الأخلاق .

و قسمنا الفصل الأول إلى أربعة مباحث فالمبحث الأول هو بعنوان القيم الأخلاقية في الفكر الشرقي القديم ، أما المبحث الثاني كان بعنوان القيم الأخلاقية في الفكر الفلسفي اليوناني أما المبحث الثالث و الذي كان بعنوان القيم الأخلاقية في الفكر الإسلامي ن أما المبحث الرابع تمثل عنوانه في القيم الأخلاقية في الفكر العربي الحديث و المعاصر .

أما الفصل الثاني و الذي يتمثل في إنشاء و تشييد الأخلاق عند سبينوزا و قسمناه هو

كذلك إلى أربعة مباحث ، ففي المبحث الأول خصصناه عن تأسيس الأخلاق عند سبينوزا أما المبحث الثاني عن الخير و الشر ، أما المبحث الثالث كان عنوانه المنهج الهندسي ، أما المبحث الرابع كان في الله و الطبيعة .

و في الفصل الثالث و الأخير إلى الحديث عن موضوع الأخلاق في فلسفة " سبينوزا " بحيث قسمناه إلى أربعة مباحث و يتمثل عنوان البحث الأول في من الطبيعة البشرية إلى التجمع المدني ، أما المبحث الثاني فكان بعنوان السياسة أما المبحث الثالث فكان بعنوان بين الدولة و الدين ، أما المبحث الرابع و الأخير كان للحديث عن أهم الإنتقادات المواجهة لفلسفة سبينوزا الأخلاقية.

و لقد إعتمدنا في دراستنا هذه على مجموعة من المناهج بداية بالمنهج التاريخي الدي حاولنا من خلاله التعرف على الحقائق التاريخية للمظاهرة الأخلاقية و تصورها عبر العصور . كما اعتمدنا كذلك على المنهج التحليلي بغرض تحليل أهم أفكار سبينوزا الأخلاقية و تفسيره لمشروعه الأخلاقي .

توطئة :

لقد كان الإنسان اهتمام كبير بالأخلاق بحيث يعتبر الأخلاق من ضرورية الإنسانية كما أن الفكر الأخلاقي مرتبط بزمان أو مكان كما أنه ليس خاص بمجتمع دون آخر ، بحيث أن الفكر الأخلاقي لا يمكن أن ينفصل على الحياة الاجتماعية اليومية الفردية ، كانت أو اجتماعية و قبل التطرق إلى دراسة فلسفة الأخلاق عند سبينوزا سنتطرق إلى الدراسات الأولى للفلسفة **أخلاق قصد مد التصور التاريخي لمشكلة الأخلاقية من زمان إلى آخر .**

الفصل الأول : تطور الفكر الفلسفي الأخلاقي

❖ **المبحث الأول : القيم الأخلاقية في الفكر الشرقي القديم**

1- الأخلاق الزرادستيتية :

يجمع أكبر الباحثين على أن " زرادستت" قد وجد حقا و إن كانوا جميعا لا يجرؤون على القول بأن لديهم أي برهان علما يدل على وجوده ، و هم مجتمعون كذلك على أنه وجد حوالي نهاية القرن الثامن قبل المسيح و إن كان قد شدت على هذا الإجماع الأخير شخصية من أجل الشخصيات العلمية و هي شخصية الإنسان "كلممين" الفرنسي الذي يرى أنه وجود في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد .[1]

- ليست الخلاق الزرادشتية من وضع الأهواء البشرية و لا من اختراع المنافع الفردية في تأثير الأزمة و الأمكنة و الظروف المختلفة . و إنما هي قوانين عامة خالدة و لذلك نرى الفضائل الجوهرية هي عند قدماء المصريين و عند الهنود و الفرس و الصينيين و اليونان و الرومان كما هي عند شعوب القرن العشرين في جميع بقاع الأرض إلا من تغيرت بما تفهم و تبدلت فطرتهم بسبب من الأسباب التي أجمع علماء الأخلاق و النفس و الإجماع على تأثيرها في السلوك البشري.
- لهذا كانت كائنا للفضائل عند الفرس كما هي عند غيرهم من الأمم تتألف من صفوف و درجات لكل منها منزلته الخاصة ، فمثلا الشرف و الإحسان و الأمانة الزوجية من الجانبين كانت في الصف الأول و لقد كانت العدالة و الصفة و الإخلاص و الصدق من أجل الفضائل كما كان العمل على تنمية النوع البشري و تقوية من أهم الواجبات الدينية و لهذا أباحت الشريعة " الزرادشتية " تعدد الزوجات ليكثر النسل و حرمت الصوم لتتوفر القوة في جميع أفراد الشعب ، و كذلك محاولة زيادة خصوبة الأرض و الإستمتاع ، كما في هذه الحياة من خبرات و لذات مشروعة كانت من أسمى قروض الشريعة ، حتى أن الإهمال بقعة من الأرض بدون إنبات أو عدم الإقتران بالزين كإرتداء رث الملابس أو عدم المبالاة.

[1] ديانات العالم كليميث ، طبعة 1 باريس ، سنة 13 ، ص 180

- بتنظيم ، قص الشعر و الأظافر ، كل ذلك كان من الجرائم الممقوتة ، أما الرذائل المستفظعة ، فهي أضداد هذه الفضائل طبعا .
- هناك فضائل ثانوية أو مستحبات أخلاقية مثل أكل اللحوم و جميع الأطعمة المغذية محاولة الإحساس بالسرور ، و مثل مهاجمة الأعداء من الأفراد بنظير ما قدموه ، أما الدفاع عن النفس أو عن الوطن فقد كان من الواجبات المقدسة .
- هذه هي أهم الفضائل الجوهرية و الثانوية و لم يبق عدا ذلك إلا أعمال هي الأساطير الوثنية أقرب منها إلى الفلسفة العملية ، و ذلك مثل حظر قبل القنافذ و كلاب البحر كما أسلفنا .[1]

المانوية : لم يعرف التاريخ عن حياة (ماني) أو (مانيش) مؤسس الديانة المانوية أكثر من ولد في (بابل) سنة 215ه و قتله أخذ ملوك لفرس في سنة 275ه ،بعد المسيح ، و أنه كان متنسكا متصوفا، لا يؤمن بانتصار الخير على الر و لا أمل عنده في صلاح هذا الوجود ، و أنه تأثر في بعض نواحي مذهبه بالزرداشتية و في البعض الآخر ب (المبنهرية) القديمة التي اعتنت بها العقلية الرومانية فبذلت منها الشيء الكثير ، و في البعض الثالث بالديانة البراهمية الأولى ، و في الرابع بالمسيحية قبل وضع قواعد الكنيسة .[2]

كما أن في أخذ عن الزرداشتية قولهم العالم مصنوع من أصلين ، نور و ظلمة و لكن اختلف معهم و مع المحوس في إعتقاده بأن النور و الظلمة قديمان أزليان بينما يعتقد المجوس بأن الظلام محدث و ليس قديما ، و أخذ ماني عن النصرانية عقيدة التثليث فالإله عنده منهج من " العظيم الأول " و " الرجل القديم " و " أم الحياة " و النصوص المانوية مأخوذة من المسيحية و ألإنجيل و قد إستطاع ماني أن يزاوج بين مبدأ الديانة الزرادشتية و كان النور هو العنصر إلهام للمخلوق الأسمى و قد نصب الإله عرشه في مملكة النور ، و لكن لأنه كان نفيا غير أهل للصراع من الشر قد استدعى " أم الحياة "

---

[1] الدكتور محمد غلاب ، الفلسفة الشرقية ، من مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، سنة 1938 ، ص 199 ، 200
[2] محمد علاء ، الفلسفة الشرقية ، مطبعة البيت الأخضر ، القاهرة ،1938 م ، ص 185

التي إستدعت بدورها " الإنسان القديم و هذا الثالوث هو تمثيل " الأب و الأم و الإبن(التثليث في المسيحية) .[1]

ثم إن هذا الإنسان سمى أيضا " الإبن الحنون " اعتبره مخلصا لأنه إنتصر على قوة الظلام بجلده و جرأته و مع ذلك استلزم وجوده وجود سمته أخرى له و هي سمة المعاناة لأن مخلص الإنسان الأول لم يحثث إنتصاره إلا بعد هزيمة ظاهرية ، و بعد موضوع الأم الإنسان الأول و تخليصه ، الموضوع الرئيسي في الميثولوجيا المانوية فالإنسان الأول هو المخلص و هو نفسه بحاجة للإقتداء فالعظيم الأول و الرجل القديم و أم الحياة يمثل التثليث المانوي و من الأحكام المانوية و هي جزء من الخواتيم التي تهتم مجموعة من القواعد الأساسية في التعاليم المانوية أربعة منها تتعلق بالعقائد الروحانية و ثلاثة حول سلوك المؤمنين و هي كالآتي :

- خاتم الغام : الكف عن الكلام الذي يؤدي إلى الكفر أو النبت .
- خاتم اليد : الإحتراز من كل فعل أو تصرف بغضب النور .
- خاتم القلب : تجنب الإستسلام للشهوات الجنسية المحرمة .

و من الأقوال الماني من الكتاب المقدس المانوي المسمى شابورغان يقول ماني :

" إن الحكمة و الأعمال هي التي لم يدل رسل الله تأتي بها في زمن دون زمن فإن محبتهم في بعض القرون على يده الرسول الذي هو " اليد " (بوذا) إلى بلاد الهند ، و في بعضها على يدي " عيسى " إلى أرض الغرب ثم نزل هذا الوحي و جاءت هذه النبوة في هذا القرن الأخير على يدي "ماني " رسول إله الحق إلى أرض بابل و يقول أيضا ماني (هنا كان يبشر إلى الهند) " إني جئت من بلاد بابل لأبلغ دعوتي للناس كافة [2])

[1] عبد الحفيظ محمد إبراهيم ، حجاب : الأثر الإسلامي في الملحمة الإيرانية دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع ، بيرو ، ط1 ، 2008 ، ص 244

[2] إدوارد براون ، تاريخ الأدب في إيران ، ج 1 ، ترجمة أحمد جمال الدين حلمي ، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ط 2005 ، ص 254 ، 255

- الأخلاق الهندوسية (البراهمية) :

الهندوسية ديانة الجمهورية العظمى في الهند الآن ، قامت على إنقاض الوجدية ، و تشردت أفكارها ، و تسلمت عن طريقها الملامح الهندية القديمة و الأساطير الروحانية المختلفة التي نمت في شبه الجزيرة قبل دخول الأريين ، و من أجل هذا عدها الباحثون إمتداد للويدية و تتطور إلها و تسمى الهندوسية أو الهندوكية و أطلق عليها البرهمية ابتداء من القرن الثامن قبل الميلاد نسبة إلى براهما Brahmaو هو القوة العظمة السحرية الكامنة التي تطلب كثيرا من العبادات كقراءة الأدعية و إنشاء الأناشيد و تقديم القرابين [1] و من براهما إشتقت الكلمة " البراهمة " لتكون علما على رجال الدين ،كانوا يعتقد أنهم يتصلون في طبائعهم بالعنصر الإلهي ن و هم لهذا كانوا كهنة الأمة ، لا تجوز الذبائح إلا في حصرتهم و على أيديهم "[2]

كما أن الهندوسيين أهمية كبيرة بالأخلاق و إن أغلى ما يطمع فيه البرهمي هو الإنطلاق و الإندماج في برهما كما قلنا ، و دستور العقل الهندي للوصول إلى هذه الغاية كان دائما الزيادة المفرطة بالصوم و أرق الليل و تعذيب النفس كما كان بأن يعيش أسير الحرمان و يحمل نفسه ألوان البلاء ، و بأن يبدو دائما كثير الهموم و الخوف و التشاؤم ، و هو لا يتمنى الموت ، لأن الموت بنقله إلى دورة جديدة من دورات حياته ، بل بوجود لنفسه الفناء في برهما .

و من أجل ذلك حفلت حياة كثير من الهنود بالبؤس ، و محاولة الميلاد ، و السلبية ، و التسول ، و تعذيب النفس ، و قسمت الفلسفة الهندية الحياة أربع مراحل ، و جعلت لكل مرحلة منهجا يليق بها ، و كل دور مدته خمسة و عشرون عاما باعتبار متوسط العمر مائة عام ،فالدور الأول دور التربية الجدية و العقلية و الروحية ، و الدور الثاني دور الحياة العائلية ، فيتزوج المرء في هذا الدور يكون له أهل و دربة و يقوم بواجباته الأهلية ، و في الدور الثالث يتنحى عن الحياة العائلية هو و زوجته و يستغلان أنفسهما بخدمة المجتمع دون أن يكون لهما نطمع شخصية أو نفع عائلي ، أما الدور الرابع

[1] محمد بد السلام ، فلسفة الهند القديمة (ثقافة الهند : مارس 1902 ، ص 19)
[2] حبيب سعيد : أديان العالم الكبرى ، دار الشرق و الغرب ، بولاق (مصر) و كند رانسة جورج بالقدس ، ط 2 ، ص 27

فيتجرد المرء فيه من كل ما هو دنيوي و يتفرغ للرياضة الروحية[1] ، و الدور الثاني دور الحياة العائلية ، فيتزوج المرء في هذا الدور و يكون له أهل و ذرية و يقوم بواجباته الأهلية ، و في الدور الثالث يتنحى عن الحياة العائلية هو و زوجته و يستغلان أنفسهما بخدمة المجتمع دون أن يكون لهما مطمع شخصي أو نفع ،أما الدور الرابع فيتجرد المرء فيه من كل ما هو دينوي و يتفرغ للرياضة الروحية [2] بالسوء و النفس لا تشبع أبدا بل يزداد جشعها بعد أن تنال مشتهاتها.

إن الذي أوتي كل شيء و الذي تخلى عن كل ما كان في بده ، فهذا خير من ذاك ..[3]

- البودية :

ولد "جوناما " في "كابيلا فلستو " على حدود " نيبال"" حوالي سنة 566 في المسيح من أسرة نبيلة ن والده رئيس قبيلة (سالما). و لما شبب زهد في نعمة والده و أخذ هذا الزهد يزداد شيئا فشيئا [4]، إلا أن كان بودا قوي الإرادة إلى حد بعيد ، و لكن هذه القوة وجهت كلها إلى النضال الداخلي ، فبينما كان ظاهره يدل على الوداعة و خفض الجناح ، كانت نفسه تحوي في داخلها عراكا قويا منذ الشهوات و الرغبات و لم يسمح لهذا النضال أن يتجاوز نفسه إلى الخارج إلا في ناحية واحدة ، و هي ناحية إقناع سائليه و مناقشيه ، و لكن هذا الإقناع كان دائما ممزوجا بروح السلام العام الذي يتخلل كل نواحي مذهبه .[5]

و كان لبودا مذهبا أخلاقي بصوره علماء الهند في صورة رائعة بودا فيقرؤون أنه كان شديد الضبط ، قوي الروح ، ماضي العزيمة ، واسع الصدر ، عزوفا عن الشهوة ، بالغ التأثير ، بريئا من الحقد ، بعيدا عن العدوان ، جامدا لا ينبعث فيه حبب و لا كراهية ، و لا تحركه العواطف و لا تهيجه النوازل ، بليغ العبارة ، فصيح اللسان ، مؤثرا بالعاطفة و المنطق ، له منزلة كبيرة في أعين الملوك و مجالسه ملتقى العلماء و العظماء

---

[1] Nells :asbort History of the world /12

[2] بروفسور أثريا : ثقافة الهند و حياتها الروحية و الأخلاقية و الإجتماعية ، ص 55

[3] أحمد شلبي ، أديان الهند الكبرى الهندسية ، الجنسية اليهودية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط 1 ، ص 68

[4] جوناما هو أحد أسماء حكيمنا الكثيرة و لعلهإسمه الأول ، و من هذه الأسماء أيضا (ساكياموني) و هو نسبة إلى قبيلة (ساكيا)

[5] محمد غلاب ، الفلسفة الشرقية ، القاهرة 1938 ،ص 123

و من القصص التي تروي لتدل على تواضعه أن أحد تلاميذه قال له مرة :

إنني أيها السيد أو من بكل قلبي أنه لم يوجد قط ، و لا يوجد الآن ، و لن يوجد غلى أخذ الدهر مرشد أعظم قدرا و أكثر عقلا من مرشدنا المبارك فأجاب بوذا : هل أنت عرفت كل عارفين الدين سبقوني ؟ و هل عرفت كل العارفين الدين يأتون بعدي ؟

فأجاب التلميذ : لا يا سيدي فلم يتسير كذلك ؟

قال بوذا : هل عرفتني كل المعرفة ؟ و توغلت في نفسي كل التوغل ؟

فقال التلميذ : لا ياسيدي و كيف ذلك ؟

فقال بوذا : فلم إذا أسرفت في قولك و جعلتني خير الناس و أنت لا تعرفني و لا تعرف الناس ؟[1]

الكونفوشيوسية :

يختلف شعب الصين إختلافا بينا عن شعب الهند ، فالهندي يتميز بالإنغماس في الأشياء الروحية ، و الإيقان في طبيعة العالم الزائلة المتقلبة ، و التفكير العميق في الله .

أما الصيني فبحسب طبيعته لا يهتم إلا قليلا في هذه الشؤون ، و في بلاد الصين يقطن شعب بقي مدى الأجيال في عزلة عن العالم ،من فجر التاريخ إلى هذا العصر الحديث ، و كان لهذه العزلة أثرها في تكوين أخلاق قومية بارزة و شعب دي طبع عملي قليل المبالاة ، فخور بتاريخه الإجتماعي و القومي و نظمه الخاصة و قد كانت الصين في فنون الحضارة في مقدمة أمام العالم و الآن و قد شهدت مؤخرا أثار علوم الغرب و ثقافته عد أن تخطت حدودها القديمة ، فأنها تدأب بعزم و همة في إقتباس تلك القوة و المؤثرات التي إعتزها الغرب و الدين يعيشون من الأجانب في ربوع تلك البلاد من مرسلين و موظفين إداريين و تجار يعجبون إعجابا بما يرونه من مقدرة و متانة أخلاق

[1] المرجع السابق ، أحمد شلبي ، أديان الهند الكبرى ، ص 150

ذلك الشعب العظيم ، و لا يقل إعجابهم هذا بسبب ما يشهدون من الفوضى و الإضطراب اللذين أعاقا تقدم البلاد في إكتمال حقها من الديمقراطية السياسية .[1]

أم كنفوشيوس هو مفتاح الدين الصيني ، و الواقع أنه لم يتذكر الكثير مما ينسب إليه ، و هو ليس قوة دينية شخصية ، و إنما قد تمثلت في حياته و كتابته وجهة النظر الصينية العادية في الحياة و الدين ، كنفوشيوس هو المثال الذي منحته الرجل الصيني في أسمى أوضاعه ، و له في نفوس القوم مكانة التوفير و الإحترام و يتخذونه نموذج الكامل . [2]

لقد بلغ كنفوشيوس في تعاليمه مستوى أخلاقيا رفيعا كان له أبلغ الأثر في حياة بلاد الصين و هذه بعض أقواله .

" أليس رجلا فاضلا داك الذي لا يشعر بانزعاج حين يفض الناس الطرف عنه ؟"

"اجعلوا الأمانة و الإخلاص من المبادئ الأولى "

" إن الرجل الفاضل في كل شيء يحسب البر من الضرورات "

و قد وضع القاعدة الذهبية في صيغة السلب .

" لا تفعل بالآخرين ما لا تريد أن يفعل بك "

و حين سمع أن " لا وتر" قال : " جازوا لستر بالخير " – حار في أمره و قال :"جازوا الشر بالخير : إذا بماذا نجازي الخير ؟ جازوا الأذى بالعدل ، و الخير بالخير " و ربما كان هذا نقصا أدبيا في نظامه ، فإن فضائله هي فضائل الإنسان الطبيعي في أحسن أوضاعه ، أما أن تجازي الشر بالخير ، و هو شأن الله معنا فظنه مقياسا أدبيا فوقا طاقته ، ثم إن أخلاقياته ضعيفة أيضا من ناحية الخطية البشرية ، فهو يؤمن أن طبيعة الإنسان

---

[1] حبيب يغير ، أديان العالم الكبرى ، دار الشرق و الغرب ، بولاق (مصر) و كتدرابة سفن جورج بالقدس ط 2 ، ص 40

[2] المرجع نفسه ، ص 41

في أصلها صالحة و لو اتبع موحياتها قادته إلى الصلاح أما الخطأ فيعزوه إلى الجهل [1] الطاوية.

- ظهرت الطاوية في الصين و يرجع تاريخها إلى أكثر من 1800 سنة .
- الغالبية يعتقدون أن الطاوية تشكلت في القرن الثاني الميلادي و تتجسد رموزها الرئيسية في تأسيس " طاوية وودومي " و " طاوية تايبينغ " مؤسس طاوية وودومي ، هو تشانغ داو لينغ ، و كانت منتشرة بصورة عامة في مقاطعة سيتشوان بجنوب غربي الصين و قد سميت بهذا الإسم لأن المؤمن بها كان عليه أنا يقدم خمسة داو واحدة كيل صينية من الأرز ، كانلوتسي هو زعيم طاوية وودومي ، بينما كتابها المقدس هو " داوده جينغ " لكن طاوية وودومي في ذلك الوقت كانت مجرد طاوية طاوية بدايته و بعد أجيال من الإنتشار و التطوير اكتسبت المضمون الديني الأساسي تدريجيا .[2]

و كانت عقيدة الطاوية هدفها الأسمى هو حيازة الروح الخالدة و تهذيب النفس و الروح ، و ذلك كاستفادة واقعية سعيا وراء العمر المديد .

ترى الطاوية أن " الداو " أو " الطاو " هو أصل الوجود و حاكمه شامل لكل شيء موجود في كل مكانا و كل زمان ، هو بداية كل الكائنات لا يوجد للكون أو الكائنات إلا بوجود " الداو ".

كما أن الأخلاق عند الطاوية كالكونفوشيوسية مذهبا من المذاهب الفلسفية و هي نفس الوقت من الديانات الصينية القديمة ، منسوبة إلى فيلسوف عظيم و مشهور في عصر الربيع و الخريف (سنة 770 ق.م، 476 ق.م) الآوهولاوسي .

إن الأخلاق عند الطاوية فهي تقوم على فكرة " داو " و " ده " و " هنا " و " داو " معناها الطريق الذي يبين عالم الظواهر و نظامه ، كما تفي نظام الكون الذي لا يدخله

---

[1] المرجع نفسه ، ص 48-49

[2] سانغ جي – الأديان في الصين ، ترجمة : تشنغ بوه رونغ ، يانغ جيان فن ، ماجيا لي وانغ ا ، جيانبنغ ، وانغ هاو ، دار النشر الصينية عبر القارات ، ص 80 ، 83

الخلل و تفي القوة الكامنة ي الطبيعة و الأشياء ، و أما "ده" فمعناه أخلاق ، و تربية أخلاق الإنسان عند الطاوية على المراحل التدريجية للتالية :

1)- أن يخلو الفرن بنفسه و أن يقطع كل الصلة التي يبينه و بين عالم الأشياء المحسوسة

2)- الإمتناع عن كل ما من شأنه تدنيس الروح و الحيلولة بينها و بين الوصول إلى الحقائق المجردة عندما يتحرر من الإنسان عن الماديات حتى يصير روحا خالصة .

3)- مرحلة الروايا أو الإشراق و فيها الفرد الحقائق المجردة إدراكا مباشرا .

4)- مرحلة الإتصال التام أو الوحدة بين الفرد و القانون الأعظم ، و منها يحصل الإندماج التام بين شخصية الإنسان والدان العليا بحيث تقني الشخصيات في شخصية واحدة حتى إرتفع الأخلاق إلى قمة الأعلى .[1]

❖ **المبحث الثاني : القيم الأخلاقية في الفكر الفلسفي اليوناني**

- مفهوم الأخلاق السفسطائية :

السفسطائيون أبناء عصرهم ، و لا يمكن تصور هذا العصر بدونهم و لا يمكن تصورهم في غير هذا العصر ، و رغم انه سيكون هناك سفسطائيون حتى الثلث الأولى من القرن الرابع ، إلا أن عصرهم الذهبي كان النصف الأخير من القرن الخامس ، أي منذ حوالي 450 بعد إنتهاء ما يسمى بالحروب الميدية و الإنتصار النهائي على الغرس حتى 404 سنة سقوط آتينا أمام عدوها اللدود اسيرطة ،[2] فمن هم ؟ السفسطائيين ؟ هم أولا معلمون و سيكون أفلاطون و أرسطو و غيرهم معلمين من بعدهم[3] ، و لقد كان للسفسطائيون عناية كبيرة بالأخلاق ، بحيث يعتقد السفسطائيون أن القيم الأخلاقية ليست مستمدة من الطبيعة بل تعتمد على الإجماع ، لذا فإن فعاليتها تختلف باختلاف الزمان و المكان ، لذلك فهي تعتبر تقدير ذاتي ، فما يمكن أن يكون خيرا بالنسبة لنا يمكن أن يكون سرا غيرنا ، بمعنى ما يبدو لي حتى فهو حق بالنسبة لي ، و ما يبدو لي أنه

---

[1] لي يينغ تشيينغ : التعريف بالطاوية ، دار الكتاب الصينية ، الطبعة الأولى ، سنة 1994 .

[2] عزت قرني : الفلسفة اليونانية في أفلاطون ،(الكويت : تنفيذ و إخراج و طبع ذات السلاسل ، 199 ، ص 83)

[3] المرجع نفسه ص 86

صواب فهو بالنسبة لي كذلك و ما يبدو لك على أنه صواب فهو صواب بالنسبة لك فقط ، فهذا يعني أن قيمة الصواب بالنسبة للفرد تبقى ذاتية و نسبية تختلف باختلاف الأفراد و بيئتهم الإجتماعية و نجد في ذلك قول " بروناغوراس " بأن الإنسان مقياس كل شيء فهو مقياس الأشياء الموجودة من حيث هي موجودة و مقياس الأشياء غير الموجودة من حيث هي غير موجودة " و معنى كل هذا أن مفهوم الأخلاق عند المدرسة السفسطائية ، مفهوم نسبي غير متحرر من التغير المكاني و الزماني و متغير من دولة إلى أخرى فالعقل الذي أحكم عليه على أنه خير قد يحكم عليه الآخر على أنه شر و العكس صحيح و بالتالي فالفعل الأخلاقي حسب المدرسة السفسطائية * يبقي نسبي مرتبط بالفرد في حد ذاته فهو الذي يرى الخير خيرا و الشر شرا و من خلال ما سبق نصل إلى أن المبدأ الأخلاقي لدى المدرسة السفسطائية ن ذاتي مرتبط بالنفس الإنسانية و المعروف على الإنسان لا يستقر على حال معين بل في تغير مستمر .[1]

مفهوم الأخلاق السقراطية :

سقراط * Socrate(470.359) ق.م اهتم سقراط بإنسان و بصورة خاصة الجانب الأخلاقي منه ، نحن لا تذكر أننا نجد لدى الشعراء و الفلسفة السابقين على سقراط قدرات لا تخلو من الحكم الأخلاقي قد إستمدوها عن تجاربهم في الحياة اليومية ظن إلا أن هذه القدرات لا تصل أبدا إلى مرتبة الفلسفة الخلقية . فنحن لا نجد عندهم مذهبا كاملا في الأخلاق يتكون منه كل متناسق متلاحم تتسلسل أجزاؤه بعضها من بعض و يرتبط بعضها ببعض ، بحيث تسيطر عليه فكرة واحدة و ينبث فيه روح واحد .

و هذا ما سيحاوله سقراط ، فإن مذهبه يعد أول محاولة للأخلاق العقلية الحرة في تاريخ الفلسفة لأن الأحكام الأخلاقية عنده لا تتوالى كيفما اتفق ، بل هي تتابع دائما حسب نظام عقلي ثابت يأخذ بعضه برقاب بعض و تتلاقى حلقاته ثم تؤلف تسلسلا في المراتب

*تعد السوفسطائية مدرسة من المدارس الفلسفة اليونانية و أصل إسمها يرجع إلى اللفظة السفسطة و كلمة السفسطة ، ترجع بدورها إلى اللفظ اليونانية سوفيسما المشتق من لفظ سوفرس، و معناه الحكيم و الحادق .

[1] جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج1 ، دار الكتاب اللبناني ، ط : 1 ، ص 258

يكتشفه العقل وحده كما نشره فهو إذ يرد على السوفسطائيين وجد نفسه مسوقا إلى البحث عن مبادئ ثابتة تكون نواة للعلم .

فطلب الحد الكلي و إنتقل منه إلى الماهيات المشتركة أو الطبائع العامة للأشياء ، لكنا رأينا أنه لم يتقدم كثيرا في هذا السبيل ، إذ تهمه ناحية واحدة من العلم لا العلم بإطلاق ، فمن هذا التصور الجديد للعلم انتقل إلى التخصيص ، فوضع الأساس الأول لعلم الأخلاق ، فقد إهتم بدراسة الإنسان أكثر من إهتمامه بدراسة الطبيعة .

و هو تأسيسه لعلمه الجديد نراه كمحادثه يبحث عن مبادئ ثابتة : إذ العلم لا يكون كما مر معنا إلا بتحديد المعاني و إقامة التصورات بطريق الإستقراء و افنتقال من الجزئي إلى الكلي ، و كدا به دائما يناقش[1] بعض التعاريف عساه يجد فيها ضالته المنشودة و هنا أيضا نراه لا يخرج بنتيجة ، فإذا ناقش بعض التعاريف فسرعان ما يرفضها جميعا و يترك كل المسائل التي يعرض لها معلقة بدون حل ، فحسبه كما ذكرنا مرارا أن يثير التفكير و أن يلفث الأنظار إلى أهمية الحد الكلي و الماهية المشتركة و أن يبث في الفلسفة تيارا جديدا يعمل الموجودات الدهنية هي الموجودات الحقيقية .

كن هل معنى هذا أن سقراط لم يأن بجديد في ميدان الأخلاق و لم يكن له من مذهبه سوى توكيد أهمية الحد الكلي و الماهية المشتركة ؟

حسبه هذا الإكتشاف العظيم الذي لا يدرك عوره و لا ينصب معنيه و الذي له من الأبعاد و الآفاق ما يعظم عن الوصف و لا يحيط به القول ، اجل حسبه إكتشاف الكلي ليكون أول من مذهب الأخلاق وضع لها نظاما موحدا متماسك الأجزاء واضح المعالم راسخ البنيان يظل هو أصدقاء تعبير عن الروح اليونانية و سيكون له من الآثار و الإنعكاسات في المعرفة هو السلوك ما لا تزال تجتني قرابة بائعة فإذا كانت الموجودات الذهنية هي الموجدات الحقيقية ، و إذا كان الوجود العقلي اسمي من الوجود الحسي . فالحياة الحقيقية إنما هي الحياة التي تستضيء بنور العقل و تهتدي بهداه ، و بالتالي

*سقراط : فلسوف يوناني من أعظم النوابع النظر العقلي في تاريخ الفكر اليوناني ولد (470 ، 359) ق.م و يد من مؤسسي الفلسفة اليونانية الكلاسيكية

[1] مرجا عبد الرحمن ، من الفلسفة اليونانية ، منشورات عويدات ، بيروت ، باريس ، الطبعة الثالثة ، 911 ، ص 103

فالسلوك الخلفي إنما هو ذلك لسلوك الذي يعتمد على المعرفة و التفكير و هكذا فالفضيلة تتضمن معنى العلم و العلم ينطوي على الفضيلة .

و معنى هذا أن الأخلاق عند سقراط من خير العقل لا من خير الدين أو التقاليد ، فلكي تتحقق بالأخلاق الفاضلة يجب أن تتحقق بالعلم و المعرفة . و لا بد لمن كان إذا به العلم و المعرفة أن يكون أخلاقا فاضلة ، فهناك إذن وحدة بين العلم و الفضيلة ، هذا هو لب الأخلاق السقراطية .

- مفهوم الأخلاقية الأفلاطونية :

أفلاطون Platon (428 م.ق/348 ق.م) تحتل المشكلة الأخلاقية مكانة رئيسية في تفكير أفلاطون ، فا لقد تداخلت جملة بحوثه في الجوانب الأخرى من فلسفته و قد جاء اهتمامه بالأخلاق في وقت مبكرا جدا نتيجة لإتصاله بأساتذته سقراط الذي كانت الأخلاق شغله الشاغل و المحور الذي تدور حوله مجمل أفكاره و آرائه .

لقد كانت الأخلاق قبل سقراط مجموعة من الحكم و النصائح تجري على ألسنة الشعراء و الحكماء أو أقوالا مأثورة في بعض نواحي الأخلاق لا تبلغ من الإحاطة و التماسك ما يجعلها علما قائما بذاته له مناهجه و أسسه .

لكننا كلما اقتربنا من سقراط تحددت المشكلة الأخلاقية و اتضحت معالمها و تبلورت مباحثها ن حق إذا ما وصلنا إلى السوفسطائيين و سقراط برز عنصر جديد في الأخلاق و هو المقابلة بين أخلاقية المنفعة و أخلاقية المبدأ ، أخلاقية الغريزة و الطبيعة و أخلاقية العقل و القانون ، بين نسبية المعاني الخلقية و تغييرها الزمان و المكان و التشخص و الحالة و بين إطلاقها و ثباتها و عند ما جاء أفلاطون كان الخلاف حاذا بين المدرستين المتعارضين : مدرسة السوفسطائيين من جهة و مدرسة سقراط من جهة أخرى ، و لم يكن له خيار في الأمر ، فهو تلميذ سقراط و صديقة بآرائه تغذي و في مدرسة تخرج ، لذلك كان أكبر همه ان ينضم إليه في حملته على السوفسطائيين و ينبغي الرد عليهم .

فكتب محاوراته دفاعا عن مبدأ العقل و القانون و تفضيله على المبدأ و المنفعة و الغزيزة . و لقد بدأ أفلاطون فلسفته الأخلاقية من حيث إنتهى سقراط ، و لذلك فقد غلبت على محاوراته الأخلاقية المبكرة روح أستاذه التي تميل إلى تقديس الواجبات و القوانين المتوازنة باعتبارها حقائق إلهية أزلية ثابتة مطلقة لا تتغير و لا تتبدل .

فنحن نجد في " برتاعوراس" مثلا أن القانون ليس كما يظن السوفسطائيون مجرد تعاقد[1]

أو إتفاق بين طرفين متساويين ، و إنما هو رابطة عضوية وثيقة العرى بين الفرد و الدولة ، كرابطة الإبن بأبيه أو رابطة العضو بالجسد ، كما نجد في " غورجياس " أن غاية الحياة الأولى ليست في إرضاء الشهوات و إشباع اللدائد ، و إنما هي في عمل الخير و التمسك بأهداب الفضيلة ، فحياة اللذة مدعاة للشقاء لأنها لا تقف عند حد معقول بال تظل تطلب المزيد على الدوام كقربة متقوبة لا يمكن ملؤها أو كالمصاب بالجرب لا نريده الحك إلا طلب للحك استحثاثا عليه ، و يفوق أفلاطون في هذه المحاور أيضا بين لذائد مفيدة ينجم عنها تحقيق الخير و الفضيلة ، و أخرى ضارة لا تأتي بخير ، و الحياة المثلى في رأيه إنما تتوفق على خط صاحبها من الفلسفة و مدى تقديره لقيم الأشياء فكلما إنتصر فيه نداء العقل و الفلسفة على منطق القوة و اللذة ، علا مقامه و سما قدره حتى يبلغ السعادة القصوى .

يذهب أفلاطون إلى أن السعادة هي الغاية العظمى للأخلاق و أن السعادة تتحقق بتحقيق العدالة بين قوى النفس الإنسانية الثلاث.[2]

مفهوم الأخلاق الأرسطية :

أرسطو * هو فيلسوف ترى عنده مذهب أخلاقي كامل و هو كسابقه قد اقتنع بأن الإنسان غايته و هدفه السعادة و لكن كيف يحصل عليها إذا لم يعرف طبيعتها و لم يعرف الوسائل التي تؤدي إليها ، فعلم الأخلاقي ليس له من غرض في الحقيقة ، إلا في توضيح

[1] المرجع نفسه ، ص 138
[2] المرجع نفسه ، ص 139

هاتين النقطتين ، اهتم إذن أرسطو بتعريف السعادة و إذا كان الخير الأسمى للإنسان هو السعادة فما هي عناصرها ؟ الحقيقة هنا يجب ألا تخلط بين الحياة الحيوانية و هذا أمر بديهي لم يكن أرسطو في حاجة لبيانه لو لم تؤده رؤية هؤلاء الرجل الدين وصلوا إلى القوة و النفوذ و أسعدتهم الشهوات .

إن السعادة الحقيقة تفترض قبل كل شيء النشاط والحيوانية الإنسان الذي يعيش في خمول و يقتضي حياته في ثبات عميق لا يمكن أن يكون سعيدا . و لكن أي أنواع النشاط يجب أن تمارسها ؟

هنا نلمس الفكرة الرئيسية في مذهب أرسطو و هي فكرة الوظيفة فكل إنسان من يستطيع أن يؤدي وظيفته بإتقان و يستطيع أن يؤديها بإهمال . و هو إذا أداها بإتقان إمتلأت نفسه سعادة لأنه استطاع أن يبرز مواهبه في أكمل صورها و إذا إختبرنا على ضوء هذه الفكرة أنواع النشاط الإنساني وحدنا أنها ثلاثة :

1)- النشاط الغريزي (التلقائي) الذي ينبث من داخل الأشياء (مثل التنفس)

2)- النشاط الحيواني .

3)- النشاط العقلي .[1]

أرسطو هنا متأثر بتقسيم قوى النفس عند أفلاطون ، و النوع الأول أي الغريزي غرضه ا لمحافظة على حياة الفرد و لا ينفرد به الإنسان نابل يشترك فيه مع الحيوان و النبات ، أما النوع الثاني (الحيواني) و تدخل فيها عنصر الإحساس و الشعور و هذه العناصر لا تتمتع بها النباتات و مع ذلك فليست هذه الحياة الحيوانية قسرا على الإنسان بل يشترك معه فيها الحيوان ، أما ما يحقق صفة الإنسانية الأساسية فهو النوع الأخير من النشاط (النشاط العقلي) و هو النشاط الذي لا يمارسه إلا الإنسان

*أرسطو : يعد من أعلام النوابغ النظر العقلي في تاريخ الفكر اليوناني ، ولد سنة (384 ، 322) ق . م و يعد تلميذ أفلاطون معلم لإسكندر الأكبر ، و يعد ثاني أكبر فلاسفة الغرب بعد أفلاطون ، و هو مؤسس علم المنطق و من أشهر كتبه كتابه ما بعد الطبيعة ، جورج طرابيشي ، معجم الفلاسفة (ط 3 ، بيروت ، دار الطليعة ، 2006) ص 16

[1] عبد الوهاب جعفر : فلسفة الأخلاق و القيم، الإسكندرية ، الناشر دار الوفاء ، لطباعة و النشر ، 2013 ، ص 68

و الحياة العقلية مظهران فهي في مظهرها الأسمى حياة التأمل و يقصد بها أرسطو المعرفة و العلم و الفلسفة و ليس هناك ما يعدل لذة الإنصراف إلى مثل هذه الأمور الذهنية و لكن حياة التأمل الخالص ليست في مقدور كل إنسان و لذا فقد يتعين أحيانا الإكتفاء بالمظهر الثاني للحياة العقلية و بغي به أرسطو إخضاع تصرفات الإنسان الأحكام العقل و يستلزم ذلك تنمية عض الفضائل الأخلاقية و ممارستها فهي تصبح جزءا من عادات الإنسان فليس الكريم هو الذي جاء بها عنده مرة و لكن من تعود الجود حتى أصبح ذلك من طبعه .

و بعد ذلك يتكلم أرسطو عناصر الحياة الأخلاقية و تكمن في تحقيق الوسط العادل يقول " أرسطو " " الفضيلة هي ملكة إختيار الوسط العدل " .[1]

❖ **المبحث الثالث : القيم الأخلاقية في الفكر الإسلامي**

مفهوم الأخلاق الإسلامية :

الخلق الكريم هو الهدف الأساسي و الرئيسي لرسالة الإسلام ، و القرآن الكريم حافل بآيات كثيرة تدعو إلى مكارم الأخلاق و تبين أن الهدف الأصل من إستخلاف الله للناس في الأرض إنما هو عمارتها بالخير و الحق مصداقا لقوله تعالى " الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة و أمروا بالمعروف و نهوا عن المنكر و الله عاقبة الأمور " سورة الحج /41[2]

و الخلق محصلة العبادات في الإسلام و هو أثقل ما في ميزان العبد يوم القيامة .

إن المتأمل في سنة رسول الله عليه و سلم في سيرة الشريفة يرى معالم منهج تربوي متكامل ، منهج يهدف أساسا إلى إيجاد الشخصية الفاضلة و المجتمع الفاضل .

---

[1] المرجع نفسه ، ص 69

[2] القرآن الكريم : سورة الحج ، الآية 41

و تعرض بعض الأخلاق الإسلامية من خلال ما ورد في كتاب الله و سنة رسول الله عليه الصلاة و السلام .[1]

الخلق الاول : خلق العدل .

المسلم يرى أن العدل بمعناه العام من أوجب الواجبات و ألزمها : إذ هو أمر الله تعالى يقول سبحانه : " إن الله يأمر بالعدل و الإحسان و إيتاء دي القربى " (النحل :90) [2] و أخبر تعالى أنه يحب أهل العدل في قوله :" و تقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين " (سورة الممتحنة /8)[3] و الإقساط هو العدل.

و نصوص من القرآن في العدل كثيرة لا نستطيع أن نحصيها في هذا المقام فالمسلم ينبغي أن يعدل في أقواله و أفعاله و أحكامه و يتحرى العدل في كل شأن حتى يكون العدل خلقا له

ووصفا لا ينفك عنه ، فلا تجرفه شهوة أو دنيا و العدل هو إعطاء كل دي حقا حقه من غير تحيز أو محاباة أو تفرقة أو تدخل لهوى نفسي و عكسه الجور و الظلم .[4]

الخلق الثاني : خلق الإحسان :

الإحسان (ضد الإساءة) و هو الإخلاص في العمل و الإتيان به على أتم وجه دون فيه رياء أو سمعة .

و المسلم لا ينظر إلى الإحسان على خلق فاضل يحمل التخلق به فحسب ، بل ينظر إليه على أنه جزء من عقيدته و عامل مهم في إسلامه ، إذ إن مراتب الدين ثلاث : و هي الإيمان و الإسلام و الإحسان و الله سبحانه و تعالى أمرنا بالإحسان في أكثر من موضع

[1] إيمان عبد المؤمن سعد الدين ك الأخلاق في الإسلام ، (النظرية و التطبيق) مكتبة الرصد ، الطبعة الأولى ، ص 155
[2] المرجع السابق ، سورة النحل ، الآية 90
[3] المرجع نفسه ، سورة الممتحنة الآية 8
[4] المرجع نفسه ، ص 156

قال تعالى :" إن الله يأمر بالعدل و الإحسان " (النحل : 90) الآية 6[1] ،و الإحسان يختلف معناه و تتعدد صوره في باب العبادات و المعاملات :

أما في باب العبادات : فهو أن تؤدي العبادة أيا كان نوعها ممن صلاة و صيام و زكاة أو غيرها أداء صحيحا باستكمال شروطها و أركانها و استشفاء سننها و آدابها و هذا ما يتم للعبد إلا إذا كان حال آدائه للعبادة ، يستغرق في شعور قوى بمراقبة الله عزوجل لكنه يراه تعالى و يشاهده .

أما في باب المعاملات :فيراد المعاملة الحسنى لجميع الناس فمع الوالدين ببرهما و طاعتهما و إيصال الخير إليهما ، و كفى الأذى عنهما ، و الدعاء و الإستغفار لهما و إنفاذ عهدهما و إكرام صديقهم إلى غير ذلك من وجوه البر لهما . [2]

❖ **المبحث الرابع : القيم الأخلاقية في الفكر العربي الحديث و المعاصر**

الأخلاق في العصور الحديثة و المعاصرة :

اما في الفترة الحديثة و المعاصرة فلقد بفقد الكنيسة للسلطة المخولة لها في القرنين الخامس عشر و السادس عشر ، و يرجع السبب في ذلك إلى ظهور المذهب الفردي الذي أكدد على الحرية الإنسانية بمعزل عن الوحي المسيحي ، كما يرجع إلى الإنقسامات و الإختلافات المستمرة داخل الكنيسة مما أضعفها آخر الأمر ، على تأييد هذا الأمر بصورة أخرى حينما ارادو لكل مسيحي أن يحمل انجيله بين يديه و أن يفسره تفسيرا فرديا غير منتظر في ذلك رأت راهب أو قسيس .

تمسك البعض بأن الفارق بين الصواب و الخطأ إنما هو فارق ذاتي يعتمد على إتجاه الفرد الذي يصدر الحكم الأخلاقي ، فما يحبه يعتبر صوابا و ما يكرهه يعتبر خطا و يمكن أن تضع في هذه المجموعة أيضا كل الدين يتمسكون بأن الفرق بين الصواب و

---

[1] المرجع نفسه ، سورة النحل ، ص 90

[2] إيمان عبد المؤمن سعد الدين ـ المرجع نفسه ص 162 ، ص 163

الخطأ هو مجرد تقليد إنساني ، و كانت هذه هي وجهة النظر الأكثر تطرفا عند السوفسطائيين و اصبحت هي واجهة المفكرين المحدثين الذين يتبعون المذهب الشكي .[1]

و تمسك البعض الثني بأن الإختلاف بين الصواب و الخطأ إنما يتم من خلال البصيرة المباشرة أو البديهة المباشرة و لقد سمى المتطرفون من أنصار هذا الإتجاه " بالحس الأخلاقي" كما نادى به شافتسري و هاتشيسون و " بالعقل المتميز أو الحصانة " التي نادى بها .

ريد Reid في القرن الثامن عشر و " البديهية المعتدلة " كما نادى بها آخرون .

كما أكد البعض الثالث على بأن الفرق بين الصواب و الخطا يعتمد على قانون ما ، لكن وجهات نظرهم إختلفت حول طبيعة هذا القانون : فنادى الروفيون بالقانون الكلي الذي ينطبق على العقل و الطبيعة و تابعهم في ذلك توما الإكويني و نادى بتلر بأن القانون الأخلاقي ما هو غلا قانون الطبيعة البشرية التي تكشف عنها دراسة التكوين السيكولوجي للإنسان و تمسك آدم سميث بقانون التعاطف الوجداني ، بينما ذهب آخرون إلى أن مثل هذا القانون ليس إلا قانون العقل و منهم ديكارت و كانط و هيغل..

غلا أن ذهب البعض الرابع غلى أن اللذة معيار الصواب و الخطأ أو الخير و الشر ، و لقد كانت إرصاصات تلك النظرة موجودة عند الأبيقوريين ، ثم امتدت في الفترة الحديثة للكي تنفذ إلى مذهب جيرمي يتنام و بون اسنبورات مل و سيد جويك .

غير ان هناك نظرات أخلاقية أخرى عديدة ظهرت كرد فعل لنزعات فلسفية ظهرت في الفترة الحديثة و المعاصرة فهناك أخلاق التطور التي قامت على فلسفة سبنسر و الأخلاق المثالية كما تطورت على فلسفات جرينا و بوزانكيت و الأخلاق النسبية كما ظهرت على يد ويستر مارك ، و أخلاق الحدس كما قامت على فلسفة برجسون.[2]

---

[1] وليام ليلى : مدخل إلى علم الأخلاق : ترجمة تقديم و تعليق دكتور / على عبد المعطي ، محمد الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، ص 59

[2] المرجع نفسه ، ص 60 -61

الفصل الثاني : إنشاء و تشييد الأخلاق

توطئة :

باروخ سبينوزا " Baruch Spinoza" (1632 ، 1671) هو فيلسوف و مفكر ديني من أسرة يهودية برتغالية كما يعتبر سبينوزا من الفلاسفة القلائل الذين فضلوا الفلسفة على الرفعة الإجتماعية و ومناصب العالية و الأمور المادية ، و سعى إلى فلسفة حقيقية كما أنه من الفلاسفة الذين أكدوا على ضرورة دور العقل في الأخلاق و ما وراء الطبيعة ، يعتبر المشروع الفلسفي سبينوزا مشروعا للحرية و منظر لمجتمع مدني حر ، في و خاصة ففي القرن السابع عشر (17) و الذين كان يعني من رواسب دينية و جهل أساس سبينوزا فلسفة تعمل على توعية العقول و تنويرها للتخلص من سيطرة رجال الدين و تظليلهم و خلق فلسفة تنويرية تنير طريق الأفراد لتحقيق مجتمع راقي مستنيرا .[1]

❖ **المبحث الأول: مفهوم الأخلاق عند سبينوزا**

مفهوم الأخلاق عند سبينوزا :

الأخلاق عند سبينوزا ليست عنصر أو جزاء من فلسفته بل فلسفته كلها أخلاقية في مبادئها و أسسها و في أبعادها و مساعها و المشكل الذي يتناوله سبينوزا بالدرجة الأولى لا يتعلق ببداهة المعرفة مثلما هو الشأن بالنسبة إلى ديكارت مثلا ، و إنما يتعلق بصفة النفس و سعادتها القصوى ، أما السؤال الذي كان سبينوزا يطرحه على نفسه فهو ليس : " ماذا يجب أن أفعل ؟" و إنما " ماذا يجب أن أفعل كي أفوز بالسعادة ؟

و إذا عرفنا ان الأخلاق سبينوزية بأنها أخلاق السعادة و فلسفته بأنها فلسفة الفرح ، باعتبار أن الطرح الأخلاقي لقضية الفرح و السعادة و من هنا سبينوزا لا يخرج عن نطاق التساؤل الآتي " كيف اضمن لنفس أكبر عدد من إنفعالات الفرح و أقل عدد من إنفعالات الحزن ".[2] فإنفعالات passion الفرح تسبب له السعادة و إنفعالات الحزن تسبب له الشقاء ، كما تبينا إذا أن النفس تخضع ، عندما تكون منفعلة ، لتغيرات كبيرة و أنها تنتقل تارة

---

[1] ستيوارت هاميشر ، عصرر العقل (فلاسفة القرن السابع عشر) :ك ترجمة : ناظم طحان ،(سوريا :دار الحوار و التوزيع) ص 13 ، 116

[2] باروخ سبينوزا ، علم الأخلاق ، ترجمة : جلال الدين سعيد ، دار جنوب للنشر ، تونس ، دون طبعة ، دون تاريخ ، ص 11

على كمال أعظم و طورا إلى كمال أقل و تفسر لنا هذه إنفعالات الفرح و الحزن ، و في ما يلي ، أعني إذا بالفرح (Laetitia) الإنفعال الذي تنتقل به إلى كمال أقل .

ثم إنطلق على إنفعال الفرح عندما يتعلق بالنفس و الجسم معنا .

و الأخلاق هي سعي للحفظ على وجود الإنسان فالرغبة désirsأساسها حفظ بقاء و يمكن لأي أشياء من الأشياء أن يكون عرضا ، سبب في الفرح أو الحزن أو الرغبة .

فجوهر الفضيلة و غريزة البقاء و كل ما يعرقل وجودنا فهو لا يمثل الفضيلة لهذا يجب تجنبه ، فالسعي إلى حفظ كيان الإنسان هو الذي يمثل الفضيلة و بالتالي الأخلاق عند سبينوزا لا تثنى على الإتيار و لا على الأنانية المفرطة بل يجب أن تكون هذه الأنانية تحت سيطرة العقل .[1] فلا يعتبر كل سعيا لحفظ الكيان فضيلة إذا لم يكن تحت رقابة عقلية لأن العقل لا يطالب بشيء من في لطبيعة الإنسانية فهو يسعى أيضا لتحقيق دواتنا كونه جزءا إنساني هو الآخر " إن العقل لا يطالب بشيء مناقض للطبيعة ، و بالتالي فهو يدعو غلى أن يحب كل امرئ نفسه و أن يبحث عن منفعة الخاصة و كل ما يقود به إلى الكمال أعظم .

فسبينوزا جعل للعقل مكانة عالية لهذا الجزء الإنساني الذي لم يعترف به في الحياة الإنسان لتحصل السعادة ، فالعقل يسعى إلى إستمرار و حفظ ذاته و بالتالي فضا تعتبر طبيعته لأن ذلك منافي مع غايته في الوجود .فسبينوزا لا يفرق بين الرغبة و الشهوة إلا من خلال الوعي و يقول سبينوزا " الرغبة هي الشهوة المصحوبة بوعي دائما "[2]

---

[1] المرجع نفسه ، ص 12

[2] سبينوزا ، رسالة في إصلاح العقل : ترجمة جلال الدين سعيد : (تونس : دار الجنوب ، 1966 ، ص 19)

❖ المبحث الثاني : مقولة الخير و الشر

مقولة الخير و الشر :

الخير و الشر من المشكلات التي حيرت الفلسفة من أقدم العصور فجاء فكر سبينوزا كرد فعل على طريقة لتفكير الذي كن سائدا في العصور الوسطى بحيث يرى أصحاب هذه العصور بأن الخير أو الشر فهو نابعا من أخطأ الإنسان و أصبح الإنسان معقبا و مخلوقا مدنيا ، و من هنا جاء فكر سبينوزا لبعيد قيمة الإنسان و هو يرى بأن الخير و الشر يتحددان إنطلاقا مما يراه الإنسان في مصلحته فا معرفة الخير و الشر هي إنفعال الفرح أو الحزن ذاته ، من جهة و عينا به ، و بالتالي فإن كل شخص يرغب بالضرورة فيما يراه خيرا و ينفر على العكس مما يراه شرا ، و لكن هذه الرغبة لا تعدو أن كون غير ماهية الإنسان دائما أو طبيعته إذا يرغب كل شخص بالضرورة وفق قوانين طبيعية فحسب أو ينفر من كيانه إلا قهرته أسباب خارجية مناقضة لطبيعة [1]و بالتالي فكلما كان الشيء نافعا و يوافق طبيعتنا كان بالنسبة لنا خيرا فسبينوزا يرى أن كل ما يسرنا و يفرحنا هو خير و ما يؤلمنا و يؤذينا هو شر و يقول في ذلك " أغنى بالخير كل نوع من أنواع الفرح ، و أيضا كل ما يقود إلى الفرح و لاسيما ما يشبع الرغبة مهما كانت هذه الرغبة

و أعني بالشر كل نوع من أنواع الحزن و لا سيما ما يحيط الرغبة .[2]

و لا تعدو معرفة الخير و الشر إلا أن تكون إنفعال الفرح أو الحزن من حيث و عينا به ، و بهذا نسمي خيرا أو الشر ما يكون نافعا لحفظ وجودنا أو ضارا به أي ما يزيد أو ينقص و يساعد أو يعوق قدرتنا على الفعل ، و علما ذلك فقدر ما ندرك أن شيئا ما يولد قبل الفرح أو الحزن فإننا نسميه حسنا ، و هكذا فإن معرفة الخير و الشر لا تعدو أن تكون غير فكرة الفرح أو الحزن ذاته .

---

[1] سبينوزا ، علم الأخلاق ، المصدر نفسه ص 250

[2] المرجع نفسه ، ص 240

و من هنا نجد سبينوزا يقرر أن الخير و الشر ليس له أي قيمة ذاتية بل قيمته تنبع من الإنسان نفسه ، فكل فعل أخلاقي تتحدد قيمته بما يحققه للإنسان من منفعة ، فما كان في صالح الإنسان و سعادته سماه خيرا و ما كان ضارا و لا يحقق المنفعة له الحزن سماه شرا و يقول سبينوزا في هذا " نسمي شرا ما يكون سبب في الحزن و ما يضعف أو يعوق قدرتنا على الفعل .[1]

و هكذا نجد سبينوزا يقدم معالجة لمشكلة الخير و الشر مختلفة عن معالجات الكثير من فلاسفة عصره و الفلاسفة العصور الوسطى .

فالإنسان يصف أي شيء يرضيه أو يساعده على تحقيق رغبته بأنه خير و يترتب على ذلك أن الخير و الشر لا وجود لهما إلا في أذهان البشر ، و إنما وجودهما يتعلق بوجهة نظر ذلك الإنسان فقط .

و من هنا نرى أن سبينوزا لا يدعو الإنسان أن يسعى لوحده لمصلحته دون مصلحة غيره ن فإن الخير الذي يرغبه لنفسه كل من إتبع الفضلة إنما هو يرغبه أيضا لغيره ، ثم إن الرغبة من حيث أنها تتعلق بالنفس هي عين ماهية النفس ، و لكن ماهية النفس تتمثل في المعرفة المتضمنة لمعرفة الله و لا يمكنها بدونها أن نوجد و لا أن تتصور و بتالي فبقدر ما تكون معرفة الله التي تتضمنها ماهية النفس معرفة أعظم و تكون رغبة الخير للغير .[2]

❖ **المبحث الثالث : المنهج الهندسي**

- المنهج الهندسي :

اسطنع سبينوزا في كتابه علم الاخلاق منهج الرياضيين في الهندسة و اسرف في اصطناع هدا المنهج حتى لقد جاد كتابه اشبه بكتب علماء الهندسة من مكتب الفلاسفة . لما تضمنه من تعريفات و بديهيات و مصادرات و قضايا و براهين و حواسب و ما الى دلك مما

[1] المرجع نفسه ، ص 288
[2] المرجع نفسه ، ص 206

يصطنعه علماء الهندسة في كتبهم و رسالتهم . و لو ندهبالى جميع كتابات سبينوزا نجدها في شكل معادلات ..

و أراد فؤاد كريا ان يثبت ان المنهج الهندسي لسبينوزا لم يكن طريقة اصطنعها لأغراضه الخاصة فيقول * أول تبريد لاستخدام هدا المنهج انه أفضل وسيلة للتعبير عن الأفكار بدفة كلمة / في مقدمة التي صدر بها كتاب مبادئ الفلسفة الديكتاترية .

و اول تبريز استخدام هدا المنهج هو انه افضل وسيلة للتعبير عن الافكار بدقة كاملة و لقد امتدح * لو دقيك ماير * المنهج الهندسي لهدا السبب في مقدمة التي صدر بها كتاب * مبادئ الفلسفة الديكتاترية * فهو افضل طريقة للوصول الى اليقين . و للتخلص من الخلط الدي اتسمت به الفلسفات السابقة . و هنا يعد اتباع سبينوزا لهدا المنهج تحقيقا لامنية سبق ان اعرب عنها ديكارت و من هدا الطريق بكشوفة الرياضية و بمحاولة تطبيق المنهج الرياضي .

و يقرب من ذلك القول بأن سبينوزا أراد أن يتجنب الأسلوب البلاغي و الإطناب الذي يرتبط عادة بالكتابة المسترسلة و أن يكتب على نحو لقارئه أقل قدر ممكن من المؤثرات الإنفعالية التي تبعد دهنه عن الموضوع الحقيقي.

و بالتالي المنهج الهندسي هو أفضل طريقة للوصول إلى ليقين و للتخلص من الخلط الذي استمت به الفلسفات السابقة (...) و يقرب من ذلك القول بأن سبينوزا أراد أن يتجنب الأسلوب البلاغي و الإطناب الذي يرتبط عادة بالكتابة المسترسلة (...) إستخدام سبينوزا للمنهج الهندسي لم يكن أمرا عارضا أو إختياريا ن هو الرأي القائل "إن المنهج الهندسي يستبعد الطريقة الغائية في التفكير و أنه يتفق مع الروح المعقولة و الإيمان السائدة في فلسفة سبينوزا [1] بالرياضيات مرتبط بالفيزياء ، نرى سببية الفيزياء و قوانين الهندسة الظاهرة بشكل واضح من خلال النظام الإستدلالي في التعريفات و البديهيات و البراهين و نظرية السببية التي استخدمها في الطبيعة و الذي ساهم في نجاح المنهج هو

[1] فؤاد زكريا ، سبينوزا ، ص 38

أنه ربط بسياق تركيبي بين علاقات الأفكار رأي بين الفيزياء و الرياضيات على عكس الأولين الذين ربطوا بين المباد الرياضية و مبدأ الهوية في الإدراك و هذا ما رفضه سبينوزا ، مبدأ الهوية ، فإن الخطأ الذي وقع فيه معظم الفلاسفة التقليديين هو ردهم الأحكام الرياضية بما هي احكام تركيبة قبلية إلى أحكام تحليلية قبلية و مرد ذلك على الإستدلال في الرياضيات و في المنطق. [1]

❖ **المبحث الرابع : الله و الطبيعة**

موقع فكرة الله و الطبيعة في فلسفة سبينوزا

يبحث أول باب من الأبواب الخمسة في كتاب سبينوزا الرئيسي " الأخلاق " موضوع " الله " و هو يؤكد في الباب الثاني ، الذي يتحدث فيه عن طبيعة الدهن البشري ، أنه يعالج هذا الموضوع الأخير من حيث علاقته بنظرية العامة إلى الماهية الإلهية ، و مثل هذا التأكيد موجود ضمنا ففي كل الأبواب الأخرى للكتاب ، و هكذا يبدو أن سبينوزا يبدأ بأهم موضوع في نظره ، و هو البحث في الماهية الإلهية ، على أساس أن آراءه في هذا الموضوع هي التي ستحدد معالم الحلول التي يأتي بها لكل المشكلات الأخرى التي سيبحثها فيما بعد .

و مع ذلك فمن الممكن القول إن فكرة الله عند سبينوزا يمكن أن تعد بمعنى معين ، تفكيرا في الله ، ففكرة الله عنده شاملة لكل شيء . و لما كان فهم الأشياء هو في رأي سبينوزا فهم الله أيضا ،فإن كل تفكير في أي موضوع فرعي من موضوعات المعرفة يعد في الوقت ذاته تفكيرا في الله ن كما أن معالم فكرة الله لا تتضح على حقيقتها إلا بعد فهم جميع الأوجه لمعرفة الأشياء فهما فلسفيا و يعبر " هيلر " عن هذا الرأي تعبيرا واضحا إذ يقول :

"إن البحث في الله يستغرق فلسفة سبينوزا من ألفها إلى يائها " [2]

كذلك تقول " سو Sow" برأي مماثل : إذ تؤكد أن فلسفة سبينوزا بأسرها إنما هي تبرير للاهوت من حيث هو علم ، و ترى في هذه الفلسفة ، و بالتالي ردا على من ينكرون إمكان

---

[1] المرجع نفسه ، ص 44

[2] فؤاد زكريا ، سبينوزا ، ط 2 : دار التنوير للطباعة و التوزيع ، بيروت ، 2005

قيام الميتافيزيقا و ما تتضمنه من أبحاث متعلقة باللاهوت ، و هكذا تصبح كل فلسفة سبينوزا في نظرها مظهرا من مظاهر إمكان على الإلهيات . و مع ذلك فمن الممكن القول من وجهة نظر أخرى إن فكرة الله ، إذ يتسع نطاقها إلى هذا الحد، " تتلاشى " في هذه العناصر الأخرى لفلسفة سبينوزا ، بحيث يصبح إيضاح هذه العناصر الأخرى لفلسفته هو الهدف الأساسي ، و لا تكون فكرة الله إلا تعبيرا عن الماهية الجامعة لهذه العناصر ، و هي الماهية التي توجد مستقلة عن موضوعها ، و يزداد هذا الرأي قوة إذا نظر إلى فلسفة سبينوزا بأسرها من خلال معادلة الأساسية : الله = الطبيعة ، فهذه المعادلة ، إذا ما فهمت دلالتها على حقيقتها تجعل البحث في اللاهوت غير ذي موضوع ، مادام البحث في الطبيعة ذاتها ، سواء في مجموعها و في تفاصيلها ، يستنفذ بذاته كل أطراف المعرفة . و في هذه الحالة تغدو فكرة الله عنصرا يمكن حذفه من فلسفة سبينوزا ، على أساس أنها مجرد مصطلح من مصطلحات العصور الوسطى التي إعتاد سبينوزا أن يعبر بها عن أفكاره المغايرة تمام المغايرة لكل الفلسفات المدرسة [1].

فإذا صح هذا الفهم الأخير فكيف نوفق بينه و بين ذلك الإهتمام الذي أبداه سبينوزا ذاته بالفكرة ؟ من الممكن أن يقال إن ذلك الإهتمام الذي جعله يعطي للفكرة موقع الصدارة في مذهبه ، إنما يدل بطريقة غير مباشرة على أن تغيير نظرتنا إلى هذه الفكرة هو في رأيه ، أساس حلنا لجميع المشكلات الفلسفية الأخرى : إنه يرى أن الفارق بين النظرة الأسطورية و النظرة العلمية إلى الكون هو الذي تحكم في جميع تفسيراتنا لمشاكل الفلسفية و حلولنا لها ، و بعبارة أخرى ، فإن الإنكار التام للتفسير اللاهوتي الفلسفة سبينوزا لا يتعارض بدوره ، مع إعطاء فكرة الله أهمية رئيسية في فلسفته ، إذ إن

[1] المرجع نفسه ، ص 107

الحديث عن هذه الفكرة سيغدو عندئذ وسيلة لعرض آرائه العلمية الجديدة في الكون أو الطبيعة ، و هي الآراء التي كانت تمثل بالفعل نظرة انقلابية بالنسبة إلى جميع الفلسفات السابقة عليه .[1]

دلالات فكرة الله في لغة سبينوزا :

من عصر سبينوزا نفسه ، ظهر الخلاف الذي لا يزال قائما إلى اليوم ، حول الدلالة الحقيقية لفكرة الله عنده ، و اتخذ ذلك الخلاف نفس الشكل الذي لا يزال يتخذه إلى اليوم و هو شكل التضاد الكامل بين رأيين ، يؤكد أحدهما أن سبينوزا كان يفي كل وصف قال به لفكرة الله ، و ان الفكرة تحتل لديه بالتالي ، موقعا أساسيا ، و أن آراءه تبعا لذلك ، لا تتعارض تعارضا أساسيا مع التراث الديني بمعناه العام ، و يؤكد الآخر أن لغة سبينوزا الظاهرية ينبغي ألا تفهم فهما حرفيا ، و أن البحث عن معانيها الخفية كفيل بأن يكشف عن أشد أنواع الإلحاد من وراء تعبيراته البريئة المظهر.

و يظهر هذا التضاد منذ اللحظة الأولى لدى مؤرخي حياته المشهورين : لوكاس Lucas و كوليروس Colerus: فالأول يدافعن سبينوزا و يؤكد أنه لا يجد أي تعارض بين ما قاله سبينوزا و بين تعاليم المسيح ، و يصل به تحمسه له إحدى حد أن يقول : " لقد قرأت لمعظم الفلاسفة ، و إني لأؤكد عن صدقا أنني لم أجد فيهم من يعرض الألوهية بأفكار أروع من تلك التي عرضها بها ... سبينوزا في كتاباته " و يقول " كوليروس " بعكس هذه الآراء تماما فكتاب " الأخلاق " يبدأ في رأيه أولا بداية رائعة : " و من ذا الذي يشك ، حين يقرأ هذه البداية البديعة ، في أن فيلسوفا مسيحيا و الذي يتحدث ؟ " و لكن عندما يختبر المرء ما يقوله سبينوزا عن الله اختبارا دقيقا ، " يجد أن إلهه ليس إلا شبحا و إلها خياليا ، هو أبعد ما يكون عن الله ...فهو يستبيح لنفسه استخدام اسم الله و فهمه بمعنى لم يعرفه أحد من المسيحيين في اليوم ، " و هكذا يفسر كوليروس إله سبينوزا بأنه " ليس سوى الطبيعة – التي هي لا متناهية حقا ، و لكنها جسمية و

[1] المرجع نفسه ، ص 107

مادية – منظورا إليها في كليتها و بجميع أحوالها " و لهذا كله لم يجد كوليروس مفرا من أن يصف مذهب سبينوزا آخر الأمر بأنه " أفجر إلحاد عرفه العالم "[1]

الصفات الإلهية و فكرة الطبيعة :

كانت فكرة " الله أو الطبيعة " هي الفكرة الأقوى ظهورا في فلسفة سبينوزا ، و قد وجد هذا التعبير تفسيرات متعددة ، رغم وضوحه الظاهر ، و قيل : إن الهوية التي يضعها سبينوزا بين الله و بين الطبيعة ليست كاملة ، بل إن الكثير من الشراح ، رغم إعترافهم بالمبدأ الرئيسي القائل : إن سبينوزا يقرن دائما بين الله وبين الطبيعة و بين الجوهر ، قد تجاهلوا هذا المبدا في كثير من الأحيان ، و كانت تنزلق في كتاباتهم ، عن وعي أو دون وعي ، كثير من المعاني التقليدية لفكرة الله ، و هي نفس المعاني التي كرس سبينوزا ذهنه لإنتقادها .

و ينبغي أن نكون نقطة البداية في بحثنا لهذا الموضوع هي تحديد المقصود على وجه الدقة من تلك المعادلة التي تجمع فيها سبينوزا بين الله و الطبيعة و ذلك ببحث الصفات التي نسبها سبينوزا إلى فكرة الله ، و مقارنتها من جهة بالصفات التي يعزوها التراث الديني إلى هذه الفكرة و من جهة أخرى بالصفات التي يمكن أن تعزى إلى الطبيعة و على أساس هذا البحث المقارن نستطيع أن نجيب على السؤال :

هل كان المقصود من فكرة الله عند سبينوزا هو النظام الكلي للأشياء ، أو الطبيعة في مجموعها ، أم أن المقصود منها شيء يزيد على الطبيعة ؟[2]

[1] نفس المرجع السابق ، ص 108

[2] المرجع نفسه ، ص 108 ، 109

و لهذا البحث في الصفات الإلهية و مدى إنطباقها أو عدم إنطباقها – على مفهوم الطبيعة أهميته القصوى في تفسير فلسفة سبينوزا : ذلك لأن الكثير من المفسرين يتحدثون عن إله سبينوزا كما لو كان هو ذاته الإله التقليدي ، وكل ما في الأمر أن صفات معينة قد تغيرت فيه ، دون أن يطرأ على الدلالة العامة للفكرة أي تغير ، و سوف تمر بنا خلال هذا الفصل أمثلة متعددة لهذه الطريقة في تفسير سبينوزا ، و هي في اعتقادنا ليل حاسم على أن سبينوزا فيلسوف لم يفهم بعد فهما كاملا .

استخدام سبينوزا للتفرقة بن تصوري الله و الطبيعة ، تعبيري " الطبيعة و الطابعة Natura naturans" و" الطبيعة المطبوعة Natura naturata" و هو يفرق بين هذين التعبيرين على النحو الآتي " أعني بالطبيعة الطابعة ما يوجد في ذاته ، و ما يتصور ذاته : أي ما للجوهر من صفات تعبر عن الماهية الأزلية اللامتناهية ،و بعبارة أخرى ... أعني بها الله ، بقدر ما يعد علة حرة .

و أعني بالطبيعة المطبوعة كل ما يتلو من ضرورة طبيعة الله أو آية صفة من صفات الله ، بقدر ما تعد أشياء توجد في الله ، و لا يمكن أن توجد أو تتصور من دون الله " .

هنا تكون الطبيعة الطابعة هي النظام الشامل للأشياء ، من حيث إنه دو وجود ضروري ، و لا يمكن أن يتصور بغيره لأن الأشياء لا يخرج عنه ، كما أن العلة فيه باطنة ، أي لا يتحكم فيه شيء خارج عنه ، أما الطبيعة المطبوعة فهي الأوجه الجزئية أو المكونات الموجودة في العالم من حيث هي تعبير جزئي عن " الصفات " الشاملة للجوهر : و من أمثلتها الأجسام الفردية التي هي أوجه لصفة " الجسمية " الشاملة الذي تنتمي إليه .

و يصف سبينوزا الطبيعة بصفات ترتبط عادة بالصفات الإلهية ارتباط وثيقا فيقول مثلا " و إذا فالطبيعة التي لا تأتي من أية علة ، و التي نعلم مع ذلك أنها موجودة ينبغي بالضرورة أن تكون كائنا كاملا ، من صفاته الوجود .[1]

[1] كامل محمد محمد عويضة – باروخ سبينوزا – فيلسوف المنطق الجديد – الطبعة الأولى – ص 102

الفصل الثالث :

موضع الأخلاق في فلسفة سبينوزا

❖ المبحث الأول : من الطبيعة البشرية إلى التجمع المدني

يرى سبينوزا أن الناس قبل تنظيم المجتمع المدني كانوا يعيشون في فوضى بغير قانون و لم يكن لديهم مفهوم عن الصواب و الخطا أو العدل و الظلم ، و كانت القوة عندهم هي الحق و لم يكن في هذه الحالة الطبيعية التي كان يعيش فيها الإنسان قبل تنظيم المجتمع شيئا يسمى خيرا أو شرا ، لن كل إنسان في هذه الحالة الطبيعية لا ينظر إلا إلى مصلحته فقط ، و ذلك لأن معظم الناس لديهم الغرائز الفردية اقوى و أرسخ من الغرائز الإجتماعية و لا يعتبر نفسه مسؤولا امام أحد إلا نفسه ، و ليس لأحد سلطة قانونية عليه ، لذلك من المستحيل إدراك معنى الفصيلة في هذه الحالة الطبيعية لأن معنى الفضيلة لا يمكن ، إدراكه أو تصوره إلا في الحياة المدنية ، حيث يتقرر بالموافقة العامة و اجتماع الآراء ما هو الخير و ما هو الشر ، و يصبح كل واحد مسؤولا[1] أمام الدولة

و من وجهة نظر سبينوزا و حسب بنائه للطبيعة البشرية و بنيوية سلوكاته ، إن الإنسان أيقن بأن السلوك لا يمكن أن ينجح على أرض الواقع إلا في ظل السياسة و التمدث و بهذا يتبين لنا الترابط بين السياسة و الأخلاق في مشروعه الفكري حيث أن الأخلاق التي يسعى الإنسان إلى الوصول إليها عن طريق التحكم في الرغبات و العمل على تعزيز القوة التي تتجسد في الأفعال و السلوكات و تكبح الغرائز الجامعة عن طريق العقل أو الضرورة المعرفة من أجل تحقيق الحرية الذاتية بواسطة الحب العقلي الله ، تجسد لنا قوة الإنسان في التحكم في أفعاله و سلوكاته بفطنة ، و نتيجة عن تجربة أيقن سبينوزا أن هاته الأخلاق مرتبطة بالمجتمع الذي يكون مرتبط بفضاء سياسي " فالسياسة تنظيم أمور دولة و تدبير شؤونها و قد تكون شرعية أو تكون مدنية فإذا كانت شرعية

كانت أحكامها مستمدة من الدين و إذا كانت مدنية كانت قسما من الحكمة العملية .[2]

---

[1] نفس المرجع السابق ، ص 122

[2] كامل محمد محمد عويضة ، مرجع سابق ، ص 122

كما يرى سبينوزا " أن الأخلاق " مرسومة تحدد تصرفاتها لأن الأخلاق لا تكون إلا حيث توجد سلطة معترف بها ، فغن استطاعت دولة أن تظفر بشيء من القوة كان حقا لها غير منازع ، وما ذكرناه عن الدولة صحيح كذلك بالنسبة لأنواع الحيوان ، فهي متنافسة متنازعة لا تعرف معنى للتعاون و الإتسار ، و كان نوع يحاول أن ينتفع على حساب الأنواع الأخرى ، و ذلك لأنه ليس بينهما أخلاق مقررة أو نظام للتعامل معترف به ، هذا التنافر و التنافس الذي تراه بين الأنواع المختلفة ، كما تراه بين الدول ، كان يسود الأفراد قبل أن يتعاهدوا على تكوين مجتمع تصان فيه مصالح الأفراد و لا يكون الحق فيه مرتكزا على القوة ، و قد دفع الناس إلى تكوين المجتمع شعورهم بالحاجة إلى التعاون و التآزر على درء الخطر ، و إذ لم يستطيع الفرد وحده أن يدفع عن نفسه كل ما كان يتهدده من أخطار و أن يحصل في الوقت نفسه ضرورات الحياة ، فلكي يهون الإنسان على نفسه أمر الدفاع عن النفس حتى يتفرغ لشؤون الحياة ، مال بطبعه إلى النظام الإجتماعي و من هذا ترى أن الناس ليسوا مهيئين بطبيعتهم لإحتمال النظام الإجتماعي ، و لكن الخطر هو الذي ولد فيهم اجتماع ، و الإجتماع يغذي و يقوي الغرائز الإجتماعية شيئا فشيئا " فلا يولد الإنسان لكي يكون مواطنا (أي فردا من مجتمع) و لكنه يجب أن يراض على ذلك ".

فمعظم الناس تحتبس في صدورهم ثورة على التقاليد و القوانين لأن الغرائز الفردية أقوى و أرسخ من الغرائز الإجتماعية ، و لذا كانت هذه الخيرة في حاجة غلى مران و تدريب ، و يزعم سبينوزا أن ليس الإنسان خيرا بطبيعته ،(كما ذهب روسو) ، و لكن الإجتماع هو الذي يولد التراحم و التعاطف .

فلا يسع الإنسان إلا أن يعطف على دويه و عشيرته ، ثم على أمته ثم على الإنسان جميعا و لقد رضي الإنسان حينما قبل أن يكون عضوا في المجتمع أن يتنازل عن بعض قوته ، فلكل فرد أن يستعمل قوته في إكتساب مصالحه على شرط ألا يتعدى على حرية الآخرين التي يجب أن تكون مساوية لحريته .[1]

[1] نفس المرجع السابق ، ص 172

و ليس الغرض الأقصى من الدولة أن تسيطر على الأفراد و لا أن تكمن بالمخاوف ، و لكن الغاية منها ان تحرر كل إنسان من الخوف حتى يستطيع أن يعيش و يعمل في أمن تام دون أن يضر نفسه أو يؤدي جاره .[1]

❖ **المبحث الثاني : السياسة .**

يؤكد سبينوزا و يدعو إلى الإنطلاق من واقع الإنسان و من طبيعة الإنسانية التي تسيطر عليها الرغبة في المحافظة على وجوده ، أي الحفاظ على الوجود و الإستمرارية التي تعتبر غريزة في النفس الإنسانية ، كما أن المعرفة هي التي تدفعه بالضرورة إلى الفعل و العمل على تعزيز قوته و دعم قدرته على الفهم و الفعل ، و عند سبينوزا هي التحرر من العبودية ،ألآن الغرائز و الرغبة ما هي إلا حالة من الجهل ، و من هنا يؤكد سبينوزا أن بالسعي في إستمرار الوجود يجب أن نتوصل إلى أن الحياة هي في الأساس حياة إجتماعية سياسية و يذهب " سبينوزا " إلى أن الناس كانوا قبل نشأة المجتمع كانت حياتهم منفردة و ليست جماعية لذا كانوا يعيشون حالة الفوضى لا ينظمهم قانون و لا يسودهم نظام و كانت القوة عندهم هي الحق أما كتابه رسالة في السياسة التي كتبها في سنواته الأخيرة ، و لكنه مات قبل إتمامها و التي كان يدافع بها عن الديمقراطية في نفس العصر الذي كان فيه

" هوبز" بمجد الملكية المطلقة في إنجلترا و يقاوم ثورة الشعب الإنجليزي على ملكيته و قد جاءت فلسفة " سبينوزا " السياسية من القوة بحيث أصبحت ينبوعا دافعا ظلت تسعى منه الحركة الديمقراطية حتى بلغت أوجها على يدي "روسو " و رجال الثورة الفرنسية [2].

---

[1] المرجع نفسه ، ص 173

[2] زكي نجيب محمود ، قصة الفلسفة الحديثة ، لجنة التأليف و الترجمة ، 1932 ، ص 170

❖ المبحث الثالث : بين الدولة و الدين

نشأ سبينوزا في حقبة زمنية تتميز بالإستقرار و الأمن نتيجة طغين الكنيسة على العقول الناس فغاب العقل و يقول سبينوزا " إذا غاب العقل ظهرت الخرافة ، و إذا سادت الخرافة ضاع العقل " و المقصود من هذه المقولة هي أن الخرافة التي طغت على عقول الأفراد سببها الحروب الدينية و التفسير لغير العلمي لظواهر الطبيعية و يرى سبينوزا أن رجال الدين كانوا يستغلون الناس تحت مسمى الدين و انتشرت المفاتن و الفساد تحت غطاء الدين ، و منذ أن أصبحت الديانة المسيحية هي العقيدة الرسمية لأوروبا تستمد قوانينها من الكتاب المقدس ، أصبحت السياسة في قبضة الكنيسة و اعتبر القديسون أنفسهم زعماء دينيون.[1]

و قد كان سبينوزا فاعلا و برز إلى الوجود بسبب تناوله لمشكلة السياسة و اللاهوت ففي تفكير سبينوزا و مشروعه الثوري ، الفرد لا يتخلى عن حريته ولديه الحق في إعتناق ما يريد و له حرية التفكير و على السلطة و السياسة مهمة الحفاظ على هذه الحرية ، و بهذا يتسنى لنا القول أن سبينوزا كان من الرافضين لمزج الدين بالدولة و إنه إذا حكم الدين حسبه سوف تسقط الدولة ، فهو يرى أن أساس سقوط الدولة العبرانية هو فساد الدولة و الدين و هذا سبب التملق و التعصب في بادئ الأمر[2] ، كما يرى سبينوزا أن الدين يوجد في قلوب الناس ، و الدين يكون في طاعة الله فيقول " لا يوصى الكتاب بأي معرة إلا المعرفة اللازمة لجميع الناس حتى يطيعوا الله وفقا لوصيته ، و هي المعرفة التي يصبحون بدونها عامين أو على الأقل يفتقرون إلى كل قاعدة للطاعة ، إن الدين مهمته هي أن يبين لناس طاعة الله و كيفية ذلك[3] ، و هذا ايضا من مهمة الأنبياء و رجال الدين الحقيقيون و يعرف النبوة على أنها المعرفة اليقينية التي يوحي بها الله إلى البشر عن شيء ما و النبي هو المفسر ما يوحي الله به لأمثاله من الناس ، الدين لا يقدرون على الحصول على المعرفة اليقينية ، يرى سبينوزا أن الأنبياء يملكون عقول كعامة الناس و لكن مخيلتهم مجرد

---

1 باروخ سبينوزا ، رسالة في اللاهوت و السياسة ، ص 13
2 نفس المرجع السابق ، ص 114
3 نفس المرجع السابق ، ص 339

إنطباعات حسية و بهذا النبوة هي أسطورة هنا هدم سبينوزا سلطة الكتب المقدس ، و لذلك هو يدعوا إلى الحرية الإعتقاد و حرية التفكير فهو يرى أنه يمكن للإنسان الإيمان بالحرية و كيفما يشاء و الأنبياء مهمتهم إيصال الوحي ، اما فيما يتعلق بالمعجزات يرى أنها عمل إلهي يثير الدهشة[1] ، فسبينوزا يرى أن الكتاب لا يروي معجزات بل يحدثنا عن أشياء تقع في الطبيعة فيقول " فالمعجزات لا تبدو شيئا جديدا إلا لجهل الناس لأن الكتاب يعلمنا ذلك بصراحة و لكنه لا يقول في أي من نصوصه أن شيء ما يحث في الطبيعة مناقض لقوانينها "[2] و هكذا ثبت من الكتاب نفسه أن المعجزات لا تعطي معرفة صحيحة عن الله ، و لا تدل بوضوح كاف على العناية الإلهية [3]، و لكي يهزم سبينوزا رجال الكنيسة لقراءة موضوعية و بأن الكتاب المقدس كلام الله ، و أنه يعلم الناس السعادة الروحية و ذلك من خلال تعاليمه و إخضاعه لتأويل رجال الكنيسة و جعل منه أداة لتحقيق مقاصدهم ، فتفسير الكتاب بطريقة اللاعقلانية تجعله ينحرف عن مسار[4]

[1] نفس المرجع السابق ، ص 162
[2] نفس المرجع السابق ، ص 163
[3] باروخ سبينوزا ، رسالة في السياسة و اللاهوت ، ص 221
[4] نفس المرجع السابق ، ص 233

❖ مقاربة نقدية تقويمية :

اختلفت الآراء في تقويم فلسفة سبينوزا اختلافا وصل بالمختلفين إلى حد التناقض ، فقد اعتبره البعض مثلا للملحدين لقوله بوحدة الوجود ، و إنكاره العناية الإلهية و العلل الغائية و عدم اعترافه بما الله من حرية و اختيار و نقده للكتب المقدسة خاصة العهد القديم ، كما ألغى الحرية الإنسانية متمثلة في إرادة الإنسان المكبلة.[1]

و أيضا تقييم مفهوم الأخلاق عند سبينوزا تندرج في أشكال ثلاثة فقط ، أي أن هناك ثلاث صور للمثل العليا و الحياة الأخلاقية ، أولها ما دعا إليه بوذا و المسيح من فضل الرحمة و اللين و المحبة التي تدعو إلى المساواة بين الناس و تدفع الشر بالخير ، و تعتبر الحب هو الفضيلة ، و تميل في السياسة إلى الديمقراطية المطلقة ، و تأنيها ما دعا إليه ماكيا فيللي و نيتشه من فضائل العنف و الرجولة التي تدعو إلى عدم المساواة بين الناس ، و تمجد الحرب و الفتح و الحكم ، و تعتبر القوة هي الفضيلة و تعظم الإستقراطية الوراثية في الحكم ، و ثالثهما أخلاق سقراط و أفلاطون و أرسطو التي تنكر إمكانية تطبيق النوعين الأولين من الأخلاق تطبيقا شاملا ن و تعتقد ان العقل الناضج المتفق وحده هو الذي يستطيع أن يحكم تبعا للظروف المختلفة متى يجب أن يسود الحب و متى ينبغي أن تتحكم القوة و لذلك تكون الفضلة في نظر سقراط و أفلاطون و أرسطو هي العقل و يدعو هؤلاء الفلاسفة غلى نظام من الحكم يجمع بين الأرستقراطية و الديمقراطية في الحكومة . هذه هي العصور الثلاث للأخلاق المثالية كما يراها بودا و المسيح و ماكيا فيللي و ينتشه و سقراط و أفلاطون و أرسطو ، فالفضيلة في الأولى هي الحب و الفضيلة في الثانية هي القوة و الفضيلة في الثالثة ي العقل .و يجيء سبينوزا و يوفق بحركة لا شعورية منه بين هذه الصور الفلسفية . المتنافرة المتضاربة و يجد في وحدة منسجمة ن و يقدم لنا نظاما أخلاقيا يعد أسمى ما وصل إليه الفكر الحديث [2]

---

[1] ابراهيم مصطفى إبراهيم – الفلسفة الحديثة من ديكارت على هيوم ، الإسكندرية : دار الوفاء ، 200 ن ص 211

[2] ول ديورانت ، قصة الفلسفة : فتح الله محمد المشعشع ، ط 6 ، بيروت ، مكتبة المعارف ، 1988 ، ص 225، 226

الخاتمة

الخاتمة

في ختام بحثنا هذا و من خلال عرضنا حول مفهوم الأخلاق لدى الهولندي باروخ سبينوزا توصلنا إلى مجموعة من النتائج و التي تتمثل في ما يلي :

لقد حمل فكر سبينوزا في فلسفته الأخلاقية مبادئ تنويرية تعلي من شأن الإنسان ككائن أخلاقي ، بحيث سبينوزا لا يعتبر الأخلاق قيما إلا إذا حملت أبعاد إنسانية كما أن الأخلاق عند سبينوزا كانت نسبية لأنها كانت تبحث عن سعادة الإنسان و الوصول إلى الخير الأسمى و مشروع سبينوزا الأخلاقي لعب دور هاما في القرن السابع عشر و ذلك بتحول المعاني الأخلاقية إلى مفاهيم نسبية تتحدد وفق غايات و رغبة الإنسان .

كما إعتمد سبينوزا على المنهج الهندسي لأنه يتميز بصرامة قوانينه في فترة كانت الرياضيات من العلوم العقلية و الثابتة الدقيقة لهذا اتخذ سبينوزا الطابع الرياضي لكي تكون أفكاره الأخلاقية دقيقة و عميقة كالفيزياء و الرياضيات .

كما كان كتاب سبينوزا – علم الأخلاق – من أهم كتبه على الإطلاق و يحتل الصدارة ما بين مؤلفاته ، و ذلك من خلال القول بأن الأخلاق ليست عنصر أو جزء من فلسفته بل فلسفة لها أخلاقية في مبادئها و أسسها و في أبعادها و مساعها ، و جعل الخير عاما بغض النظر عن الديانة التي تنتمي لها .

قائمة المصادر و المراجع

قائمة المصادر و المراجع :

1)- قائمة المصادر :

1- القرآن الكريم

2)- باروخ سبينوزا ، علم الأخلاق : ترجمة جلال الدين ، تونس ، دار الجنوب ، 1966

3)- رسالة في إصلاح العقل : ترجمة جلال الدين سعيد ، تونس : دار الجنوب 1966.

2)- قائمة المراجع :

1- أحمد شلبي ، أديان الهند الكبرى ، الهندوسية الجينية ، البودية ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة 11.

2- إيمان عبد المؤمن سعيد الدين ، الأخلاق في الإسلام ، مكتبة الرشد ، الطبعة الأولى.

3- إدوارد براون ، تاريخ في إيران ، جزء الأول ، ترجمة أحمد كمال الدين حلمي ، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة ، طبعة 2 ، 2005

4- حبيب سعيد : أديان العالم الكبرى ، دار الشرق و الغرب ، بولاق (مصر) و كندارية سفن جورج بالقدس ، ط 2.

5- حبيب يغير ، أديان العالم الكبرى ، دار الشرق و الغرب بولاق (مصر) و كندارية سفن ، جورج بالقدس ، طبعة 2

6- زكي نجيب محمود ، قصة الفلسفة (لحيمة لجنة التأليف و الترجمة 1932)

7- ستيوارت هامبشر ، عصر العقل ، ترجمة دكتور ناظم طحان ، طبعة 2 . دار الحوار للنشر و التوزيع 1986

8- عبد الحفيظ محمد ابراهيم ، دجاب الأثر لإفسلامية في الملحة الإيرانية ، دار الهدى ، الطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت طبعة 1 ، 2008

9- عبد الوهاب جعفر ، فلسفة الأخلاق و القيم الإسكندرية ، الناشر ، دار الوفاء ، الطباعة و النشر ، 2013

10- عزت قرني : الفلسفة اليونانية في أفلاطون : الكويت ، تنفيذ و طبع ذات السلاسل ، 1993.

11- عبد الرحمن مرحبا ، من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية ، الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعة ، 1983

12- فؤاد زكريا ، سبينوزا ، طبعة 2 ، دار التنوير للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت 1993 و الثقافة ، القاهرة ، 2012

13- وليام ليلي : المدخل إلى علم الأخلاق ، ترجمة و تقديم و تعليق : علي عبد الله المعطي محمد الإسكندرية ، دار المعرفة ، الجامعية ، 1999

14- الموسوعات و المعاجم .

15- جمل صليبا : المعجم الفلسفي ، جزء الأول ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، طبعة الأولى ، 1986